شاهد الحال فى المقال

للاستاذ السيد محمد عبد الشافعى

اقتضت حكمة ربك الحكيم العلام أن يخلق الإنسان على هذه الشاكلة ، وأن يجعل له أعضاء متعددة وحواس مختلفة وجعل لكل حاسة وعضو فيه مأمورية خاصة من أجلها خلق ذلك العضو أو هذه الحاسة . وكما أنه يتعذر على أى عضو فيه القيام بمأموريته التى خلق من أجلها لمرض لحقه ، فكذلك فيه لطيفة ربانية . هى محل الفقه فيه . يطلق عليها لفظ القلب . وما خلقت هذه اللطيفة فى الواقع إلا لدوام ذكر الحق ، والتفكر فى جميل آلائه وعظيم مصنوعاته ، ليحصل لها من جلال الله ومعرفته ما يجعلها تقود البدن إلى السعادة ، إن زكت وصلحت فإن لحقها مرض عاقها — كما عاق أى عضو آخر فى الإنسان من القيام بمأموريته التى من أجلها خلق — استجرت الإنسان إلى الهاوية وأوجبت له ولها الشقاء .

وإلى ذلك يشير قول الله تعالى : « قد أفلح من زكاها وخاب من دساها » .

ولا شك أن كثرة القلوب معتلة مريضة . ويمكن للكيس الرشيد أن يفهم موضع الداء من قلبه ، ان هو عرض القلب منه على قول الله تبارك وتعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » فبمقدار تعلق القلب بغير الله وإيثاره على ربه بمقدار إعراض القلب عن الله ، وما خلق القلب ليعرض عن سيده ، وإنما خلق لدوام الاقبال عليه والذكر له . لذلك كانت تزكية القلب والعمل على طهارته من أول واجبات المرء نحو ربه ونفسه ، وترك ما أوجبه الله إثم يجب الإقلاع عنه . ولا تزكية للقلب إلا بعلم وعمل ، أما العلم : فهو العلم بأحكام الله وصفاته — وأما العمل : فهو العمل بأحكام الله والوقوف بالنفس عند الحد المرسوم لها شرعاً . وإذا كان العلم يتطلب من المرء العمل فكذلك العمل يثمر للعلم : قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقال صلى الله عليه وسلم : (من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم)

إلا أن العلوم منها ما هو متعلق بالأعمال وحكم الله فيها ، ومنها ما هو متعلق بالقلوب وما يجب أن تتخلى عنه من رزائل وما تتحلى به من فضائل لتكون صالحة فى ذاتها للفيض الإلهى الأقدس والدخول فى حضرات القرب . ولا بد للمشتغل بعلم الفقه المتعلق بأعمال الجوارح من الأخذ بعلم القلوب والعمل به وإلا وقع فى الفسوق ، كما لا بد للمشتغل بعلم القلوب أن يأخذ بعلم الفقه حتى تسلم عقيدته وعمله وإلا وقع فى الزندقة — وقد قرر ذلك الإمام مالك رضى الله عنه بقوله : من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق . ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق . ومن تحقق وتشرع فقد كمل . رضوان الله عليه . إلا أن الناس منهم من شغله علم الأحكام عن الأخذ بعلم القلوب ، ومنهم من شغله علم القلوب عن علم الفقه والتوغل فيه ، ومنهم من جمع الله له بين الأمرين ، فكان من الراشدين حقاً .

الأول : لا يسلم قلبه فى الغالب من حب لغير الله أو رزيله .

الثانى : لا يسلم أمره فى الغالب من شطحات فى حالة السير .

أما الثالث : فقد ملك الشرع فيه زمام حاله ، فما انتقل القلب منه من مقام إلى مقام ، ولا انصبغ بحال من بعد حاله ، ولا تكشفت له حقيقة من الحقائق ، ولا تنزل عليه وارد من الواردات إلا وقام له فى كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله . فلا يتعارض الحال فيه مع الشرع ، ولا يحرم بالوقوف مع ظاهر التشريع عن لبه وحقيقته . ولاختلافات النزعات وسلوك كل فرد طريقه على هذه الصورة كان لا بد لكل قلب فى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة صفات وأحوال غالبة عليه ، هى عبارة عن كسوة ذلك القلب وصنعته . وما تكلم متكلم فى الواقع إلا وهو معبر عن حاله ؛ ولذا قيل إن الكلام صورة المتكلم ، أى صورة قلبه ونفسه الباطنة . وكما أن لكل شخص فى الوجود أحدية تميزه عن غيره ، فكذلك لكل قلب من القلوب رواء خاص يتميز به عن سواه يشهده البصير حينما ينطق صاحبه ، ومن ثم يمكنه الحكم عليه بأنه سليم القلب أو معتل ، بأنه فقيه أو غير فقيه ، بأنه سالك أو غير سالك ، بأنه عارف أو غير عارف ، هذا مع معرفة ما بهذا القلب من كمال أو نقص ، فى كل ما هو فيه من حال ومقام إن كان سالكا أو عارفا . من رزيلة وفضيلة إن كان فقيها ، من فسوق وإعراض إن كان مؤمناً أو غير مؤمن فباطن المرء فى الحقيقة ظاهر فى كلامه . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (من أسر سريرة ألبسه رداءها) وصدق حيث قال : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟